

## الكلمة الثانية

لِمَنْ يَرَى لِلَّهِ الْجَنَاحُ إِذَا تَحْسَدُهُ

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (القراءة: ٢)

إن كنت تريده أن تعرف مدى ما في الإيمان من سعادة ونعمـة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع إلى هذه الحكاية القصيرة:

خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى أحدهما وكان أنايـا شقيـا إلى جهة، ومضى الآخر وهو ربـاني سعيد إلى جهة ثانية. فالأنـاني المـغـور الذي كان مـتـشـائـما لـقـيـ بلـداـ فيـ غـايـةـ السـوـءـ والـشـؤـمـ فيـ نـظـرهـ، جـزـاءـ وـفـاقـاـ عـلـىـ تـشـاؤـمـهـ، حـتـىـ كـانـ يـرـىـ أـيـنـماـ اـتـجـهـ عـجـزـةـ مـساـكـينـ يـصـرـخـونـ وـيـولـولـونـ مـنـ ضـربـاتـ أـيـديـ رـجـالـ طـغـاةـ قـسـاةـ وـمـنـ أـعـمـالـهـمـ المـدـمـرـةـ. فـرأـىـ هـذـهـ الـحـالـةـ الـمـؤـلـمـةـ الـحـزـينـةـ فـيـ كـلـ مـاـ يـزـورـهـ مـنـ أـمـاـكـنـ، حـتـىـ اـتـخـذـتـ الـمـمـلـكـةـ كـلـهـاـ فـيـ نـظـرـهـ شـكـلـ دـارـ مـأـتمـ عـامـ. فـلـمـ يـجـدـ لـنـفـسـهـ عـلـاجـاـ لـحـالـهـ الـمـؤـلـمـ الـمـظـلـمـ غـيرـ السـكـرـ، فـرـمـىـ نـفـسـهـ فـيـ نـشـوـتـهـ لـكـيلـاـ يـشـعـرـ بـحـالـهـ، إـذـ صـارـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ أـهـلـ هـذـهـ الـمـمـلـكـةـ يـتـرـاءـىـ لـهـ عـدـواـ يـتـرـبـصـ بـهـ، وـأـجـنبـياـ يـتـنـكـرـ لـهـ، فـظـلـ فـيـ عـذـابـ وـجـدـانـيـ مـؤـلـمـ لـمـاـ يـرـىـ فـيـ مـاـ حـولـهـ مـنـ جـنـائـزـ مـرـعـبةـ وـيـتـامـيـ يـيـكونـ بـكـاءـ يـائـساـ مـرـيرـاـ.

أما الآخر، الرجل الـربـانيـ العـابـدـ لـلـهـ، وـالـبـاحـثـ عـنـ الـحـقـ، فـقـدـ كـانـ ذـاـ أـخـلـاـقـ حـسـنةـ بـحـيثـ لـقـيـ فـيـ رـحـلـتـهـ مـمـلـكـةـ طـيـةـ هـيـ فـيـ نـظـرـهـ فـيـ مـنـتـهـيـ الرـوـعـةـ وـالـجـمـالـ. فـهـذـاـ الرـجـلـ الـصـالـحـ يـرـىـ فـيـ الـمـمـلـكـةـ الـتـيـ دـخـلـهـ اـحـتـفـالـاتـ رـائـعـةـ وـمـهـرـجـانـاتـ بـارـعـةـ قـائـمـةـ عـلـىـ قـدـمـ وـسـاقـ، وـفـيـ كـلـ طـرـفـ سـرـورـاـ، وـفـيـ كـلـ زـاوـيـةـ حـبـورـاـ، وـفـيـ كـلـ مـكـانـ مـحـارـيبـ ذـكـرـ.. حـتـىـ لـقـدـ صـارـ يـرـىـ كـلـ فـرـدـ مـنـ أـفـرـادـ هـذـهـ الـمـمـلـكـةـ صـدـيقـاـ صـدـوقـاـ وـقـرـيبـاـ حـبـيـباـ لـهـ. ثـمـ يـرـىـ أـنـ

المملكة كلّها تعلن -في حفل التسريح العام- هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات الجوقة الموسيقية وهي تقدم أحانها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يُساقون إلى الخدمة والجنديّة.

في بينما كان ذلك الرجل الأول المتشائم منشغلًا بألمه وألام الناس كلّهم. كان الثاني السعيد المتفائل مسروراً مع سرور الناس كلّهم فرحاً مع فرحهم. فضلاً عن أنه غنِم لنفسه تجارة حسنة مباركة فشكر ربّه وحمده.

ولدى عودته إلى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه وعن أخباره، فيعلم كل شيء عن حاله فيقول له: "يا هذا لقد جُنِّنت! فإنّ ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك، بحيث أصبحت تتوهّم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح وإجازة نهب وسلب. عُد إلى رُشدك، وطهر قلبك، لعل هذا الغشاء التكميدي ينざح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة وممالكها وهو في متنه درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وإن مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك.. لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور".

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع إلى صوابه رويداً رويداً، ويفكر بعقله ويقول متندماً: "نعم لقد أصابني جنون لكثره تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك، فلقد أنقذتني من جحيم الشقاء".

فيا نفسي! اعلمي أن الرجل الأول هو "الكافر" أو "الفاسق الغافل". فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الأحياء أيتام يبكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق.

أما الإنسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راعٍ ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته. وأما الموجودات الضّيّخام - كالجبال والبحار - فهي في حُكم الجنائز الهاشدة والنعوش الرهيبة. وأمثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الإنسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً.

أما الرجل الثاني، فهو "المؤمن" الذي يعرف خالقه حق المعرفة وبيؤمن به. فالدنيا في نظره دارٌ ذكر رحمني، وساحةٌ تعليمٌ وتدريب البشر والحيوان، وميدانٌ ابتلاءٍ واختبارٍ للإنس والجان. أما الوفيات كافة -من حيوان وإنسان- فهي إعفاء من الوظائف، وإنها من الخدمات. فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث إنّهم يُنقلون إلى عالم آخر غير ذي قلق، حالٌ من أوّل ضار المادّة وأوّل صاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، ليُنفّسح المجالُ واسعاً لموظفيِّن جدد يأتون للّسي في مهامهم.

أما المواليد كافة -من حيوان وإنسان- فهي سوق تجنيـد عسكـرية، وتسلـم سلاحـ، وتستـمّـ وظائف وواجباتـ، فـكـلـ كـائـنـ إنـماـ هوـ موـظـفـ وجـنـديـ مـسـرـورـ، وـمـأـمـورـ مـسـتـقـيمـ رـاضـ قـانـعـ. وأـمـاـ الأـصـوـاتـ الـمـبـعـثـةـ وـالـأـصـدـاءـ الـمـرـتـدـةـ منـ أـرـجـاءـ الدـنـيـاـ فـهـيـ إـمـاـ ذـكـرـ وـتـسـبـيـحـ لـتـسـتـمـ الـوـظـائـفـ وـالـشـرـوعـ فـيـهـ، أـوـ شـكـرـ وـتـهـلـيلـ إـيـذـانـاـ بـالـاـنـتـهـاءـ مـنـهـاـ، أـوـ أـنـغـامـ صـادـرـةـ مـنـ شـوـقـ الـعـلـمـ وـفـرـحـتـهـ.

فالـمـوـجـودـاتـ كـلـهـاـ -فـيـ نـظـرـ هـذـاـ الـمـؤـمـنـ- خـدـامـ مـؤـنـسـونـ، وـمـوـظـفـونـ أـخـلـاءـ، وـكـتبـ حـلـوةـ لـسـيـدـ الـكـرـيمـ وـمـالـكـ الرـحـيمـ.

وهـكـذـاـ يـتـجـلـىـ مـنـ إـيمـانـهـ كـثـيرـ جـداـ مـنـ أـمـالـ هـذـهـ الـحـقـائقـ التـيـ هيـ فـيـ غـاـيـةـ الـلـطـفـ وـالـسـمـوـ وـالـلـذـقـ. فـالـإـيمـانـ إـذـنـ يـضـمـ حـقـاـ بـذـرـةـ مـعـنـوـيـةـ مـنـشـقـةـ مـنـ "طـوبـيـ الجـنةـ". أـمـاـ الكـفـرـ فـإـنـهـ يـخـفـيـ بـذـرـةـ مـعـنـوـيـةـ قـدـ نـفـشـتـهـ "رـقـوـمـ جـهـنـمـ".

فـالـسـلاـمـةـ وـالـأـمـانـ إـذـنـ لـاـ وـجـودـ لـهـمـاـ إـلـاـ فـيـ الإـسـلـامـ وـالـإـيمـانـ. فـعـلـيـنـاـ أـنـ نـرـدـ دـائـماـ: الحـمـدـ لـلـهـ عـلـىـ دـيـنـ الإـسـلـامـ وـكـمـالـ الإـيمـانـ.